النقد الألسني النظامي/ إرهاصاته، أُطره المنهجية و اتجاهاته.

Systemic linguistic criticism/ its beginnings¸ methodological frameworks and trends.

محمد صبايحي *

اليامين بن تومي[1]♣

تاريخ الإرسال: 2021/07/16	تاريخ القبول: 2022/10/12	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

يقدِّم هذا البحث رؤية تجريدية للنسق الألسني المهيمن في الخطاب النقدي الحديث والمعاصر، إذ تعتبر الممارسة النقدية القائمة على المعرفة العلمية للغة ثورةً نوعيةً في القرن العشرين الذي يُعدُّ بحق قرنَ النقد الألسني؛ فدَرَسنا هذا الأخير من خلال الكشف عن إرهاصاته الأولى، والبحث في أُطُرِه المنهجية واتجاهاته العامة، لنحيط ما أمكن بماهية النقد الألسني وكُلِّياته الأساسية التي تجمع تفريعاته النظرية، وتلمُّ تراكماته الموضوعاتية، وهذا ما يمنح الدراسة شيئا من الأهمية بما يحذوها من تذليل مفاهيمي لعنوان نقدي عريض وسعيها لطرح الرؤية والمنهج، خصوصا وأننا ننوِّه بندرة الدراسات العربية التي تستهدف بشكل واضح وصريح مصطلح النقد الألسني، طبعا رغم كثرة التآليف التي تلهج به وتعرض لأطروحاته وتحولاته الهائلة.

الكلمات المفتاحية: النقد الألسني، اللسانيات النقدية، التحليل اللغوي، تحليل الخطاب، الفلسفة التحليلية، اللسانيات البنيوية، اللسانيات الوظيفية.

Abstract:

This research presents an abstract overview of the dominant linguistic pattern in modern and contemporary critical discourse, where critical practice that is based on scientific study of language, is generally considered

* جامعة محمد لمين دباغين sebaihi.med2016@gmail.com

♣ جامعة محمد لمين دباغين Lyamine2050@yahoo.com

a revolutionary and genuine contribution in the twentieth century, which is indeed the age of Linguistic criticism, so we studied the latter by researching its beginnings, its methodological frameworks and general trends. The aim is to better fathom the essence of critical linguistics and its macro tenets which bring together its theoretical diversity and multilayered themes. Hence, the significance of this research lies in the fact thatits studies closely and adequately the frame and methodology of this field. It is also worthy to note here that there is scant studiesin Arabic that explicitly targets the notion of discourse analysis in spite of the numerous publications that tackle its subjects and metamorphosis.

***Key words**:Linguistic criticism, Critical linguistics, linguistic analysis , discourse analysis , analytical philosophy , structural linguistics, functional linguistics.*

المؤلف المرسل: محمد صبايحي sebaihi.med2016@gmail.com

مقدمة:

النقد الألسني (Linguistic criticism) مصطلحٌ إبستيمي، ودالٌّ مركزيٌّ في المنجز النقدي الحديث والمعاصر، إذ نشأ وازدهر في أحضان الجامعات العالمية المرموقة، وقد ظلَّت نظرياته العصيَّة والهائلة حكرا على البحثة والمتخصِّصين، حتَّى أنهم لا يكادون يلحقون حركته المتسارعة ومنجزاته المتجددة؛ فهو نقدٌ نخبويٌّ بامتياز، وليس في متناول الجميع كغيره من النُّقود السابقة عليه... بل إن هذا النقد يستعصي أحيانا على المنظِّرين له أنفسهم؛ تماما مثل النقد البنيوي الذي استقامت نظريَّته للفرنسيين مع السرد، ولم يفلحوا كثيرا في تطويعها حِيال الشعر.

ويحيل مصطلح النقد الألسني -أو اللسانيات النقدية (Critical linguistics)- من خلال بنيته التركيبية إلى رؤية جديدة في الدراسة الأدبية، على إثر ما تُتيحه آفاق التعاقد المعرفي المعلن بين المقاربة النقدية ومطارحات الألسنية الحديثة؛ وإذ نرصد تمدُّد المشهد اللساني في تخوم النقد الأدبي بشكل رهيب، وانصهار حدودهما في بوتقة واحدة، فإننا نطرح إشكالية النقد الألسني للبحث في المصطلح وتفكيكه من حيث تشكلاته الأولى في التاريخ، والأطر المنهجية التي أفرزته وخطَّت حدود اشتغالاته، إلى جانب توجُّهاته العامة في دراسة

النصوص وتحليل الخطابات، هادفين للإلمام الموضوعي بماهية هذا النقد، واستقراءِ قضاياه المعرفية وِفقَ دراسة مفاهيمية وصفية تحليلية نعرض لها ضمن هذه الورقة البحثية.

2. الإرهاصات الأولى للنقد الألسني:

إن التراكم المعرفي الهائل الذي يؤثِّث نظرية النقد الأدبي، يعود أساسا إلى تحوُّلات هامة في أنساق الخطاب النقدي، والثابت على مدار أغلب هذه التحولات في الرؤية والمنهج هو العناية باللغة في العمل الأدبي بدرجات تتفاوت في الأهمية حسب طبيعة المعالجة النقدية؛ فاللغة في الأخير هي ما يُقيم التمظهرات المورفولوجية للعمل الأدبي، وهي أوَّلُ ما نواجهه في العملية النقدية التي تقتضي إلماما كافيا باللغة وعلومها، وعلى هذا الأساس نطرح فرضية أن أقدميه النقد القائم على التحليل اللغوي من أقدمية الخطابين الأدبي والنقدي وعراقتهما عموما، وهذا ما سنختبره في الثقافتين الغربية والعربية على سواء.

1.2 في الثقافة النقدية الغربية:

يمكن أن نرصد الإرهاصات الأولى للتوجُّه اللغوي في النقد الغربي مع فيلسوف البيان اليوناني بروديكيوس (Prodicus)؛ الذي "كان ممارسا جادا ومفيدا لما قد نسميه شكلا قديما من أشكال االتحليل اللغوي، وعُرِف بإصراره على تصويب الكلمات والأسماء، وقد أثَّر أسلوبه الخاص في هذا الموضوع تأثيرا شديدا في سقراط، الذي لم يكن يجابه على الإطلاق ليعلن نفسه من أتباع بروديكيوس"[1]، كما "أن العديد من حجج سقراط في محاورات آفلاطون تعتمد على هذه المقدرة في فرز معاني الكلمات ومجموعات الكلمات التي يبدو أن لها نفس المعنى"[2]، وقد "كان كل من بروتاغوراس وهيبياس وألكداماس يعتنون بتدقيق الكلمات التي تسمي الأشياء، وكان هذا النهج معروفا عند السوفسطائيين في وقت مبكر من عام 422 ق.م"[3]، إذ "روَّج بروديكيوس وآخرون للوعي الذاتي باللغة، التي سخر منها آفلاطون باعتبارها نزعة تفسيرية مفرطة تهتم بالتحليل اللغوي؛ ففي محاورته بروتاغوراس ينتقد بشدة -على وجه التحديد- طريقة بروديكيوس التي يتجاهل بها الموضوع الرئيسي الواضح للقصيدة، بينما يشدِّدعلى ميزاتها الثانوية، ويقدِّم سلسلة تحليلات نحوية مجهرية للعمل الأدبي، ويبدو

ISSN 2437-0819 EISSN: 2602-6

الأمر كما لو أن بروديكيوس اقترب من تشديد ديريدا على أسطورة الوجود الذاتي الجلي للمعنى"[4]؛ فقد كانت طريقة بروديكيوس في نقده اللغوي تعتمد على "تحديد ثنائيات الكلمات المترادفة التي يتم تعتيمها في الاستخدام العادي، وتقسيمها بدقة إلى معانٍ متميزة، بحيث تنقل التجلية الكامنة في المعنى الطبيعي"[5]، وهذه الصرامة النقدية في تعامله مع اللغة جعلت بعضهم يعتبره " سيِّد التحليل اللغوي والكلام الدقيق"[6].

وبالعودة إلى مسرحية "الضفادع/ Frogs" لأرسطوفانيس (Aristophanes) كوثيقة أدبية ترتدُّ إلى القرن الخامس قبل الميلاد، نقف بوضوح على تسجيلها لعديد الملاحظات النقدية التي تهتم باللغة والكلمات، والتي جاءت ضمن مشاهد تباري إيسخيلوس (Aeschylus) ويوربيديس (Euripides)، واحتكامهما إلى ديونيسيس (Dionysus)؛ ومن ذلك أن هذا الأخير وافق يوربيديس عندما أخذ على مواطنه إيسخيلوس أنه يفصح عن نفس الشيء مرتين من خلال توظيفه للترادف اللغوي[7].

وفي كتابه البويطيقا (Poetics)، قدَّم آرسطو تحليلا لغويا في غاية الأهمية، عندما عرض لأصل تسمية الدراما بشقَّيها التراجيدي والكوميدي من زاوية الاشتقاق اللفظي؛ إذ "يدَّعي بعض الناس أن الدراما تسمى الدراما بما تنطوي عليه من شخوص يمثلون أو يؤدُّون فعلا، وهذا في الواقع هو الأساس الذي يستند إليه الدوريون (Dorians) لادِّعاء أسبقيتهم في ابتداع كل من المأساة والتراجيديا"[8]، والشاهد "أنهم يستدلُّون باشتقاق بعض الكلمات؛ فهم يقولون أنهم يطلقون على قراهم النائية كلمة (Kõmai)، في حين أن الأثينيين يطلقون عليها كلمة (Demoi)، فالكوميديون لم يُطلق عليهم هذا الإسم من استلهام كلمة (Kõmazein)، ولكن بسبب طردهم من المدينة بازدراء، فراحوا يتجوَّلون من قرية (Kõmai) إلى أخرى، كما أن الدوريين يستخدمون -في العادة- كلمة (Dran) للدلالة على التمثيل أو القيام بفعل، بينما يستخدم الأثينيون كلمة (Prattein)"[9]، وبالنسبة لأرسطو "فإن كلمة (Drama) هي كلمة رئيسية، بما تُوفِّره من ارتباط معدَّل في تأسيس المعنى الجذري للدراما، وهذا ما جعل إيلز (Else) يرى أن هذا المقطع هو إطالة مريحة أضافها آرسطو مع بعض الإضافات الداخلية"[10].

وعلى غرار هذا الأنموذج التحليلي الهام، الذي ينمُّ عن اعتداد آرسطو بالنقد اللغوي ودرايته به، فقد أشار إلى موضوع الإلقاء، وأنماط التعبير بما هي تمييز بين الأمر والدعاء، والسرد والتهديد، والسؤال والجواب[11]، كما أثار بعض المفاهيم للوحدات المشكِّلة للغة؛ نحو: الحرف والمقطع وأداة الربط والإسم والفعل، وكذا ثالوث اللواحق واللواصق والنبر (Inflexion)، ثم الجملة أو العبارة[12]، وتحدَّث أيضا عن كينونة الكلمة من حيث بنائها البسيط أو المزدوج، ومن حيث انوجادِها متداولة أو مجازية أو زُخرفية أو مختلفة أو مزيدة أومنقوصة أو منحوتة[13]، وربط هذه التوصيفات التي عرض لها بما أسماه كمال الأسلوب اللغوي وغايته في الجودة والوضوح[14]... والحقيقة أن اهتمامات آرسطو بالمكوّن اللغوي في تشريحه النقدي للدراما من خلال كتابه البويطيقا، ليست إلَّا مجرَّد إحالات إلى أهمية اللغة والإيقاع، وملاحظات وصفية لا ترقى إلى التعبير عن رؤية نقدية تحليلية للغة في الشعر؛ ويُرجع ستيفن (H. Stephen) هذا الاحتشام في العناية باللغة إلى تطوُّر المسائل اللغوية -على الرغم من أهميتها التاريخية- بمعزل عن النظرية الأدبية والنقد اليونانيين، إذ وقع آرسطو تحت طائلة طريقة السوفسطائيين في دراستهم المستقلَّة للغة، مما أثَّر في منهج مقاربته للشعر[15].

ويرى دافيد تشارلز (D. Charles) "أن مناقشة آرسطو للأسماء ومعانيها ودلالتها جزء من رؤيته العامة للدلالة اللغوية والفكر والتعريف، وهذا لا يزال -إلى حدٍّ ما- مجالا مهملا من الدراسة؛ إذ شكَّ بعضهم فيما إذا كان مهتما بالمعنى على الإطلاق، واقترح آخرون أنه أرسى تصوُّرا لمعنى مصطلحات النوع الطبيعي من نفس الشكل العام الذي اقترحه هيلاري بوتنام (Hilary Putnam) ضمن بحوثه في الستينيات والسبعينيات، ولا يزال آخرون يقدِّمون آرسطو على أنه يقترح رؤية تناهض الواقعية لمعنى النوع الذي أوصى به مايكل دوميت (Michael Dummett) أو هيلاري بوتنام في الثمانينيات، كما يواجه الفلاسفة الذين يقرؤون آرسطو معضلة غير مرغوب فيها من حيث أنه لم يكن لديه أيُّ تصوُّر للمعنى ..."[16]، إلَّا أن الباحث دافيد نسف جميع هذه المزاعم بمشروعه الجاد والمعقَّد الذي يتقصَّى معاني الأسماء ودلالتها عند آرسطو من خلال أعماله الفلسفية، وناقش بإسهاب -في كتابه (آرسطو: المعنى والماهية / Aristotle on meaning and essence)- معاني المصطلحات اللغوية نحو:

الإنسان والرعد والماء والأسماك والكسوف انطلاقا من رؤية آرسطو الدلالية لهذه الأسماء والتعابير ذات الصلة بما هي توصيف لمعانيها، وأكَّد أن آراءه حول هذه المسائل تختلف عن مقترحات القرن العشرين السائدة اليوم على نطاق واسع، وتستحقُّ الإشادة والتقييم الفلسفي في حدِّ ذاته[17].

وفي حدود هذا الاستقصاء، فإنه يمكن القول أن اليونانيين امتهنوا التحليل اللغوي ببراعة وتفوُّق في القرن الخامس قبل الميلاد، مما يؤكد عراقة هذا الاختصاص الذي صار يُعرف بعد خمس وعشرين قرنا بالنقد الألسني.

2.2 في الثقافة النقدية العربية:

وأمَّا في الثقافة العربية، فإن اختبار فرضية أقدمية التحليل اللغوي وعراقته يستدعي الاشتغال على مدار الأدب والنقد الجاهليين بوصفهما أقدم مرويات العرب، ولكن هذا التوجُّه في البحث تعتورِه عدَّة إشكالات منهجية عويصة، تبدأ من جهلنا لتاريخ الأدب والنقد الجاهليين من حيث طفولتهما وتطوُّرهما، وتنتهي بنظرية الشك فيما بين أيدينا من نصوص، وما لحقها من نحل وتوليد إثر ارتحالها المضطرب من الجاهلية إلى عصر التدوين، كما يجب أن لا نستبعد ما اعترى العرب من شعور عفوي في البراءة ممَّا صدر عنهم قبل ظهور الإسلام؛ فمالوا إلى تهميش واستهجان كل ما ارتبط بجاهليتهم بما في ذلك التنكُّر لعديد الأشعار والمرويات، تماهيا مع ما يقتضيه تحوُّلهم الديني الجديد.

وعلى غرار ملاحظات نقادنا القدماء حول نحل الشعر الجاهلي، وما اكتنفه من ضياع وخلط وأكاذيب، فقد عاود كثير من البحثة المستشرقين وبعض العرب المحدثين بعثَ هذه المشكلة، ودراستها في ضوء ما جدَّ من معطيات ووثائق وكشوف؛ "ففي سنة 1925م، اعترض البريطاني المستعرب صامويل مارجوليوث (Samuel Maegoliouth) على صحة الشعر الجاهلي الذي يعتبر الحجر الأساس في الشريعة التقليدية للأدب العربي، وفي العام التالي، نشر الأكاديمي الناقد والمؤلِّف المصري طه حسين كتابه المثير للجدل (في الشعر الجاهلي، 1926م)؛ وهو دراسة أكثر تفصيلا لم تطعن في أصول الشعر الجاهلي فحسب، بل شكَّكت أيضا في نزاهة القرآن"[18]، إذ "لا حظ طه حسين -متأثِّرا بنالينو (Nallino)- أن

الشعر الجاهلي لا يماثل من حيث لغته ومضمونه الديني النقوش الحميرية التي اكتُشِفت مؤخَّرا، وشكَّك في دوافع وموثوقية رُوَّاة هذا الشعر بعد الإسلام"[19] ... وقد "تراجعت هذه الشكوك في الآونة الأخيرة إلى حد كبير، بعد ازدهار فهم أفضل للطبيعة الشفوية للشعر الجاهلي في أعمال علماء مثل مونرو (Monroe / 1972) وزويتلر (Zwettler / 1978) وجاكوبي (Jacobi / 1987) وكذا سويان (Sowayan / 1985)، فإن كان بعض ما وصل إلينا مما يعود إلى ما قبل الإسلام هو بالتأكيد تكوين لاحق، فالجزء الأكبر من هذا الشعر تمَّ قبوله على أنه صحيح"[20]، ويبدو أن جهود ميلمان باري (Milman Parry/ 1971) وألبرت كلورد (Albert Clord/ 1965) في نظرية الصيغة الشفوية للتكوين الشعري أضاءت كثيرا من الدراسات الغربية في مسألة الشعر الجاهلي، في حين تخلَّف الدرس العربي ولم يجتهد بشكلٍ كافٍ في خلق آلياته وأدواته المنهجية لتحقيق هذا الشعر، وتمييز صحيحه من منحوله.

وبينما لم نفرغ من مشكلات وجود الشعر الجاهلي وصحَّته، حتى لاحت –أيضا- دراسات جادة تعرض لمشكلة أكثر أهمية، هي بدايات الشعر الجاهلي؛ إذ يُعتبر التاريخ الكنسي بما سجَّله عن القبائل العربية البدوية المتاخمة لحدود الإمبراطورية الرومانية - خصوصا خلال فترة حكم فالنس (Valens)- أحد أهم الوثائق الرئيسية لإعادة بناء تاريخ العرب ومسار العلاقات العربية البيزنطية، وما يتعلَّق بمسألة تكوين الشعر العربي وبداياته، فقد تحدَّث المؤرّخ سوزومين (Sozomen) -الذي عاش في القرن الرابع- عن أغاني الحرب التي خلَّدها العرب إثر احتفالاتهم بانتصارات الملكة ماوية (Mavia) على الإمبراطور فالنس حوالي 380م، كما أن اكتشاف نقش نمارة (the Namara inscription) الأكثر ثراءً وإثارة للجدل - بما يتضمنه من طروحات تاريخية ولغوية- أمكن من العودة ببدايات الشعر العربي إلى القرنين الرابع والثالث الميلاديين؛ فقد "أثبت نقش نمارة وجملة قصائد عهد حكم الملكة ماوية حقيقة أن اللغة العربية في القرن الرابع كانت لغة مكتوبة وأدبية"[21].

وبحسب سوزومين، فإن بطولات الملكة ماوية عاشت في ذاكرة أهالي المنطقة، حيث خاضت المعركة واحتفل بها العرب في عُدَي (Odai)، كما روى هذا المؤرّخ الكنسي عن ثلاثة أرباع قرن بعد مآثر ماوية، وهذا عهد متأخر لنقل كل من القصائد التي تألَّفت والأحداث التي وقعت آنذاك، مما يؤكد إمكانية انتقال الشعر الجاهلي على فترات طويلة من الزمن، كما لم

يكن العرب الحلفاء لبيزنطة في القرن الرابع تحت حكم ماوية أُميّين؛ فنقش نمارة الذي يعود إلى هذا القرن يشير بوضوح إلى استخدام الكتابة لتسجيل مآثر ملك الإتّحاد العربي امرؤ القيس (Imru´al. Qays)، بالإضافة إلى نقش يوناني يعود لذات القرن مرتبط بماوية أو أحد أقاربها، وفي المحصِّلة يُحتمل أنه تم تسجيل القصائد التي احتفلت بالنَّصر أيضا، لكونها عزيزة جدا على قلوب العرب... وبالتالي فإن رواية سوزومين تشهد على أقرب مرجع موجود لانتقال الشعر الجاهلي وكذا تكوينه، ومن المؤسف -على نحو مضاعف- أنه لم تُحفظ أخبار عُدي ولا النُّسخ العربية"[22]، ويجدر التنويه هنا أن امرئ القيس هذا هو الملك اللخمي وليس الشاعر الكندي ابن حجر صاحب (قفا نبكِ)، الذي تعود أشعاره –وأغلب الشعر الجاهلي- إلى القرن السادس كما يقول هوار كليمان وكثيرون .

وفي قراءته الحصيفة لمضامين نقش نمارة ودلالاته، يقف الباحث عرفان شهيد على حقيقتين في غاية الأهمية؛ "الحقيقة الأولى تجعل من الممكن الحكم على الأجزاء الشعرية التي تُنسب إلى القرن الرابع، أن تُنسب أيضا إلى القرن الثالث بعد الميلاد؛ إذ يجب أن يكون الملك امرؤ القيس قد عاش على الأقل ربع قرن من القرن الثالث، والثانية تجعل من الممكن الحكم على أنها أجزاء مبكرة من الشعر العربي؛ والتي تألَّف بعضها في النصف الشرقي من الهلال الخصيب، مثل الشعر الذي يُنسب إلى اللَّخميين (Lakhmids) والتنوخيين (Tanûkhids) من بلاد الرافدين، حيث ينتمي امرؤ القيس نفسه، وبالتالي فإن نقش نمارة يوفِّر الإطار اللغوي والزمني والإقليمي الذي يمكن من خلاله دراسة بعض هذه الأجزاء - كأقدم تمثيل موجود من الشعر الجاهلي- بشكل مثمر"[23]...

كانت هذه بعض الإشكالات المنهجية التي تكتنف الشعر والنقد الجاهليين، وقد نوَّهنا بالتاريخ الكنسي والكشوفات الحديثة كحلول منهجية هي الأخرى لهذه الإشكالات، التي يجب أخذها بعين الاعتبار في أيّ دراسة جادة ترتدُّ إلى الأيام الأولى للأدب والنقد العربيين، وممَّا لا شكَّ فيه أنه يجب على دارس الشعر الجاهلي ونقده أن يكون على وعي بمثل هذه المسائل المنهجية، التي ترتبط بصحَّته وبداياته السحيقة الممتدة إلى القرن الثالث الميلادي، حتى لا يقع تحت طائلة مزالق المدرسية والبحث العلمي غير المسؤول؛ وإلَّا كان من الأيسر لنا أن نُسَلِّم بما وصلنا من القرن السادس الميلادي، ونخوض في نقد المفردة اللغوية عند طرفة

بن العبد فيما أخذه على المسيّب بن علس إذ قال: استنوق الجمل؛ فأحال إلى مفارقة التأنيث والتذكير بما هما خصيصتان لغويتان، ونثبت أن عنصر المبالغة هو مدار اهتمام النابغة الذبياني؛ في نقده لحسان بن ثابت حين استعمل لفظة الجمع البسيط (الجفنات) دون منتهى الجموع (الجفان) للدلالة على الكثرة، وأن نُؤصِّل للاهتمام النقدي اللغوي كما تطرحه أمُّ جندب في حكومتها الشهيرة ضمن المتون الشعرية والنقدية التي درجنا عليها.

ولكي نتجاوز هذه الطروحات بشكل منهجي إلى ما يعنيينا في بحثنا هذا، فإنه يمكن الاشتغال على الشكل الأنموذجي القار للقصيدة الجاهلية كما شاع بين القبائل العربية جميعا، والذي ظهر استعماله أكثر في مُضَر؛ فقصائد مكتملة مثل قصائد عمرو بن قميئة البكري -وهو شاعر جاهلي في وقت مبكِّر- تعني بوضوح تقليدا رصينا لتكوين شعري سابق عليها بقرن على الأقل، ثم إن هذا الأنموذج البنائي المركوز في الوعي الشعري الجاهلي الذي يُعرف اليوم بنظرية الشَّكل (The form teory) صمد فيما بعد لقرون، ومازال يحتذى به إلى غاية يومنا هذا، ويقوم هذا الأنموذج على ما يمكن الاصطلاح عليه بالتقييد اللغوي (language restriction) للإنتاج الشعري؛ إذ "تمَّ اختزال مفهوم الشكل في الشعرية العربية القديمة في ثلاثة عناصر هي: الوزن والقافية واللغة، وكان عدد الأوزان محدودا (ستَّة عشر) إلى جانب ثلاثة ابتكارات لا يمكن أن تكون أساسية في هذا الجانب من الشعر، كما كانت إمكانية إثراء الشكل من خلال القافية محدودة أيضا، حيث أن الشرط الأساسي للقافية في الشعر العربي أن تكون دائما على رويٍّ واحد، فهذا الشعر لا يعرف قافية مذكَّرة أو أنثوية أو... إلخ، وبعبارات أخرى؛ فإن عدد القوافي مقيَّدٌ بعدد الحروف الأبجدية الساكنة... وعلى كل حال، فإن منح الأفضلية القصوى للشكل الشعري بالموازاة مع القمع الحازم لأهمية المحتوى الشعري، أصبح المصدر الرئيسي للمعيارية في الشعرية العربية القديمة، وقد تمَّ تقييد الحرية والفضول الإبداعيين للشاعر بطريقة مُثلى ومضاعفة؛ فمن ناحية، مُنِح الشعراء الأفضلية المطلقة من خلال المعالجة الشعرية للزخارف التي تمَّ تقريرها بالفعل في الشعر، والتي كانت بكل تأكيد عاملا مُقيِّدا، ومن ناحية أخرى؛ كان الإلحاح على الشكل كعامل جمالي رئيسي، حيث تمَّ اختزال الشكل في كل ما ينطوي عليه مفهوم القالب، وهذا كان عاملا آخرا مهمًّا في تقييد الإنتاج الشعري"[24]، وتجدر الإشارة إلى أن الوزن في الشعر

العربي هو انتظام دقيق من الحركات والسكنات بما هي سمات لغوية، تجعل من البنية العميقة للبيت الشعري قالبا من الصِّيغ الصَّرفية السَّماعية، هي جملة التفعيلات التي تَطُوعُ لها اللغة.

وإذا أردنا أن نستأنس بتمثيل من الشعر الجاهلي، نعتقد بصحته وفقا لمقتضيات الصيغة الشفوية للتكوين الشعري كما أقرَّها المستشرقون، ومن ذلك صحة الشعر الجاهلي الذي يرتبط بجغرافيته بما هي مفهوم أيديولوجي يتجاوز مرابض القبيلة وحماها، إلى مفهوم العصبية بكل ما تعنيه من ارتباط عضويٍّ للفرد بجماعته وأرحامه، فإنه يمكن أن نطمئن لبيت شهير تناقلته العرب فيما بينها حتى أصبح مثلا سائرا كما يقول أبو هلال في جمهرته، ونعني به بيت الشاعر دريد بن الصمة إذ يقول:

وما أنا إلَّا من غزيَّةَ إن غَوَت غويتُ وإن ترشد غزيَّة أرشدِ[25].

والشاهد أن الشاعر بَرَع في توظيف الصيغة الشرطية بما تقتضيه من شروط لغوية، كما وظَّف التَّضاد (غوت، ترشد) والجناس الصرفي (غَوَت / غويتُ، ترشد / أرشد)، ممَّا ينمُّ عن درايته بجمالية هذين المكوِّنين اللغويين في الخلق الشعري، وهذا يندرج ضمن الممارسة النقدية المضمرة التي قام عليها التكوين الشعري العربي.

والنتيجة المترتِّبة عمَّا سبق، أنه لا مندوحة في القول بأن العرب عرفوا النقد اللغوي في القرن الثالث الميلادي، من خلال معرفتهم الشعرية التأسيسية القائمة على التقييد اللغوي (الوزن، القافية، الزخارف...)، ولطالما تعامل نقادنا فيما بعد مع الشعر من هذا المنظور، حتى أننا نجد حازم القرطاجني في القرن الثالث عشر يتغنى بمفهوم الشعر من حيث كونه استعمالا لغويا موزونا ومقفًّى، والحقيقة أن النقد اللغوي ظلَّ الأنموذج المهيمن في الثقافة العربية؛ إذ أكَّد كبار النقاد المتقدمين على المعيارية النحوية والصرفية واللغوية في نقد النصوص، فلطالما استخفَّ الجاحظ بالمعاني المطروحة في الطريق يعرفها العربي والعجمي، ولطالما اعتبر الجرجاني بقوة السبك وجودته، وجعل النَّظم مدار الإعجاز اللغوي بما هو تمظهرات نحوية للمفردة اللغوية.

3.الأطر المنهجية وحدود الاشتغال:

يجد النقد الألسني دعامَتَيه التاريخية والمعرفية في موضوعة الفلسفة التحليلية، "فالتحليل اللغوي كفلسفة منهجية قديم قِدَم الرواقيين المتجولين، فالعديد من حوارات آفلاطون –على سبيل المثال- تهتم تحديدا بتوضيح المصطلحات والمفاهيم، ومع ذلك فإن هذا النمط من الفلسفة قد تلقَّى تأكيدا متجدِّدا بشكل كبير في القرن العشرين؛ إذ أصبح الفيلسوفان الإنجليزيان مور (G.E. Moore) وبرتناند راسل (Bertnand Russell) مؤسسين لهذا الاتجاه التحليلي واللغوي المعاصر كطلَّاب معا في جامعة كامبريدج، متأثرين بالتقاليد التجريبية البريطانية السابقة لجون كوك (Jhon Lock) وجورج بيركلي (George Berkelley) وديفيد هيوم (David Hume) وجون ستورت ميل (Jhon Stuart Mill) وكتابات عالم الرياضيات والفيلسوف الألماني جوتلوب فريج (Gottlob Frége)، وقد نبذ كل من مور وراسل المثالية الهيغلية؛ خاصة وأنها انعكست في أعمال الميتافيزيقي الإنجليزي فرنسيس هربرت (Francis Herbert/ 1846-1924)، الذي تأثر بهيغل ودافع عن الرؤية المثالية التي مفادها أن الحقيقة هي تجربة في مجملها... وأكَّد راسل أنه يمكن حل المقترحات المعقدة في أبسط مكوناتها، وهو ما أسماه المقترحات الذرية (Atomic propositions)، وتشير هذه المقترحات إلى الحقائق الذرية (Atomic facts) والمكونات النهائية للكون؛ فالآراء الميتافيزيقية المؤسَّسة على هذا التحليل المنطقي للغة، والإلحاح على أن المقترحات ذات المعنى يجب أن تنسجم مع الحقائق لتشكِّل ما يسميه راسل الذرية المنطقية(Logical atomism)، كما أدَّى اهتمامه ببنية اللغة إلى التمييز بين الشكل النحوي (Grammatical form) للمقترح وشكله المنطقي (Logical form)[26].

وإلى جانب راسل في جامعة كامبريدج، "أصبح الفيلسوف النمساوي لودفيج فيتجنشتاين (Ludwig Wittgenstein) شخصية مركزية في التحليل اللغوي والحركة اللغوية؛ ففي أوَّل عمل رئيسي له (Tractatus logico-philosophicus/ 1921، trs، 1922) الذي قدم فيه لأول مرة نظريته عن اللغة، نمَّ فيتجنشتاين عن أن جميع مدار الفلسفة هو نقد اللغة، وتلك الفلسفة إنما تهدف إلى التوضيح المنطقي للأفكار، وقد كانت نتائجَ من تحليلاته تشبه الذرية المنطقية لراسل... ولقد تأثَّر –براسل وفيتجنشتاين وإرنست ماخ

(Ernst Mach) وآخرون- فريق من الفلاسفة وعلماء الرياضيات في فيينا (Vienna) خلال عشرينيات القرن الماضي، وبدأت الحركة المعروفة باسم الوضعية المنطقية (Logical positivism)، بقيادة موريتز شليك (Moritz Shlick) ورودولف كارناب (Rudolf Carnap)، إذ باشرت حلقة فيينا أحد أهم الفصول في تاريخ الفلسفة التحليلية واللغوية، ووفقا للوضعية فإن مهمة الفلسفة هي تجلية المعنى، وليس اكتشاف حقائق جديدة (دأب العلماء)، أو بناء تصورات شاملة للحقيقة (السعي المضلِّل للميتافيزيقيا التقليدية)[27]...

هكذا صار التحليل اللغوي موضوع الفلسفة الحديثة، حيث استنفر كبار الفلاسفة جهودهم الحثيثة لاستهداف اللغة بأدواتهم المنطقية ومناهجهم الرياضية، وتبعا لذلك ازدهر النقد الألسني بما هو ثمرة للمخاض النقدي وتوجُّهاته العلمية التي فرضتها الشروط الموضوعية للقرن العشرين؛ إذ تجذَّرت فعالية المنهج التجريبي لنتائجه الحاسمة والملموسة في العلوم المادية والطَّبيعيات، وإثر شيوع هذه الفوبيا الأغوستية توالت دعوات واسعة لتعميم المنهج القائم على رصد الملاحظات واختبار الفروض، وضرورة الدراسة العلمية لمختلف الظواهر الإنسانية، وعلى رأسها اللغة ومن ورائها الأدب.

وفي سياق هذا الهاجس المنهجي، صدر كتاب دروس في علم اللغة العام/ Cours de linguistique general المعزو للعالم السويسري فيرديناند دي سوسير (Ferdinand De Saussure) سنة 1916م؛ الذي كان بمثابة تأكيدٍ صريح لقصور الإدراكات التاريخية والمقارنة للدراسات اللغوية، وبداية الدراسة العلمية الصارمة للغة بوصفها نسقًا من العلامات ونظامًا مغلقًا، والحقيقة أن العبارة التي أوردها شارل بالي (Charles Bally) وآلبرت سيكاهي (Albert Sechehaye) في آخر الكتاب، والتي مفادها "أن الموضوع الوحيد لعلم اللغة هو اللغة مأخوذة بعين الاعتبار في ذاتها ومن أجل ذاتها"[28]، كانت هي الفرضية المحورية التي طرحها سوسير للاختبار على مدى مشروعه الطامح لوضع الأُسس التي تضبط علم اللغة الحديث وقوانينه.

هذا التوجه العلمي في التشريح المختبري للغة في ذاتها ومن أجل ذاتها، كان له بالغ الصدى عند كبار النقاد في نظرتهم إلى العمل الأدبي بوصفه تشكيلا لغويا مغلقا هو الآخر، وازدهرت النظرة العلمية لماهية هذا العمل الأدبي؛ الذي لم يعد مجرَّد ترجمة

للحقائق الموجودة خارجه، ذلك أن هذه الحقائق قد انصهرت في بوتقته بما يُفقدها كثيرا من طبيعتها الأولى؛ فالعمل الأدبي نِتاجٌ مختلفٌ بطابعه التفاعلي، تماما كما تتفاعل المواد الكيميائية وفقَ معادلات خوارزمية فيما بينها، لتنتج مادة هجينة تختلف في خصائصها المميِّزة عن خصائص متفاعلاتها التركيبية الأصيلة... ومن هنا انطلقت قاطرة التقاليد النقدية التي تعيد النظر في العمل الأدبي بوصفه تمثيلا لغويا مكتفيا بذاته، وتُولي اللغةَ بالغَ اهتماماتها العلمية والموضوعية؛ فانبلج النقد الشكلاني (criticism Formal) في العشرينيات على إثر تصوُّرات تأسيسية مهمة، واحدة منها المقالة التي كتبها فكتور شكلوفسكي (Victor Shklovsky): الفن كتقنية/ Art as technique (1917)، وكتب في ذات السياق رومان جاكبسون (Jakobson Roman): الشعر الروسي الحديث/ Modern Russian poetry (1921)، كما صدرت دراسات روسية جمَّة في إطار الاهتمام العلمي بالبنية اللغوية للأعمال الأدبية نذكر منها: بوريس إيخنباوم (Boris Eichenbaum): ميلوديا الشعر الغنائي الروسي/ The melodics of Russian luric verse(1922)، وكتاب بوريس توماشفسكي (B. Tomashevsky): النَّظم الروسي/ The Russian versification (1923)، وكذا ميخائيل باختين (Mikhail Bakhtin): مشكلات شعرية دوستويفسكي/ Problems of Dostoevsky´s poetics (1929)... وأما في أقسام الجامعة البريطانية، فقد ازدهر في الحقبة نفسها ما يسمَّى بالنقد التطبيقي (criticism Practical)، إذ تحسَّن النقد كثيرا من خلال مراجعة الخطاب النقدي والدراسة المتعمِّقة للغة في النص الأدبي؛ ومن أهم الأعلام الذين استوعبوا هذا الأنموذج الناقد الشهير ريتشارد إيفور آرمسترونغ (Richards Ivor Armstrong) في كتابَيه: مبادئ النقد الأدبي/ Principles of literary criticism (1929) والنقد التطبيقي/ Practical criticism (1929)، وأيضا ويليام إمبسون (William empson) في كتابه: سبعة أنماط من الغموض/ Seven types of ambiguity (1930)...

وفي الثلاثينيات حتى الخمسينيات، ارتسمت في أمريكا الشمالية معالم مدرسة النقد الجديد (New criticism)، التي دعت إلى التعقيب على التشكيل اللغوي للنص الأدبي وإضاءته من داخله، بدلا من معالجة الظواهر الاجتماعية والتاريخية والنفسية التي تشرحه، ومن أهم الجهود النقدية المؤسِّسة لهذا النقد العلمي القائم على استهداف البنيات

والسيرورات اللغوية الواصفة نذكر كتاب بروكس كلينث وروبرت وارين (Brooks Cleanth and Robert Warren): فهم الشعر / Understanding poetry (1938)، وكتاب بروكس كلينث الآخر: الوعاء محكم الصنع /The well wrougth Urn (1947)... وفي خضم هذا النزوع المحموم نحو النقد الجديد، صدر كتاب نظرية الأدب / Theory of literature (1948)؛ الذي خطَّه رونيه ويلك (René Wellek) بالتعاون مع أوستين أوران (Austin Warren)، وبقدر ما بشَّر هذان الناقدان بميلاد نقدٍ رصينٍ مبنيٍّ على أساس موضوعي ومنهجي، إلَّا أنهما كانا شاعرين بمزالق علمنة النقد، ومدركَين لإكراهات المنهج العلمي وتطبيقه الواسع في ميدان الدراسة الأدبية، وإذ "نرى انتصارات حاسمة للفيزياء في بعض النظريات العامة لتحويل صيغة الكهرباء والحرارة والجاذبية والضوء، فإنه لا يمكن افتراض وجود قانون عام يبلغ الغرض من الدراسة الأدبية؛ فكلما كان هذا القانون أكثر عمومية وأكثر تجريدا وبالتالي خاويا، كلما استعصى الموضوع الملموس للعمل الفني على إدراكنا"[29]، والأكيد أننا سنقف لاحقا على جدوى امتعاضات ويلك وأوران من عدم تجانس منهج الدراسة وطبيعة المادة المدروسة في تتبعنا الكرونولوجي لتحولات النقد الألسني في أواخر الخمسينات وما بعدها، والأزمات المنهجية التي عصفت به.

هذا الموجز البيبليوغرافي الذي نطرحه كفيض من فيض، ينطوي تحت عنوان الدراسة النقدية التقليدية للغة في الأدب، التي تقوم على العلمية من جهة، والاستهداف العشوائي للغة من جهة أخرى؛ وبعبارة ثانية نعني بالدراسة النقدية التقليدية للغة في الأدب جملة النقود التي يجمعها الاهتمام الشديد باللغة والتعقيب عليها بروح علمية دون الإستناد إلى منهج واضح المعالم أو طريقة محددة في دراسة النصوص، وهذا ما يمنح شرعية الإصطلاح عليها بدالِّ النقد الألسني اللانظامي كمقابل لمصطلح النقد الألسني النظامي (Systemic linguistic criticism)؛ هذا الأخير الذي تبلور فيما بعد ناهلا من النظرية الألسنية الحديثة بكل تنوعاتها البراديغمية، إذ كانت بدايته الفعلية في النصف الثاني من الخمسينيات مع البراديغم البنيوي القائم في تأسيسه النظري على لسانيات سوسير والفكر الشكلاني عندما أعيد إحياؤه في فرنسا آنذاك على يد تزفيتان تودوروف(Tzvetan Todorov)... وفي هذا الصدد يقول هاليدي (M.A.K. Halhiday): "إن جزءا من مهمة علم

اللغة وصف النصوص، وجميع النصوص، بما في ذلك النثر والشعر الواقعين ضمن أيِّ مفهوم للأدب، فهي متاحة للتحليل وفق المناهج اللسانية الحالية؛ وإذ نتحدث عن الدراسة اللسانية للنصوص الأدبية، فبالطبع لا نعني دراسة اللغة كيفما اتفق، وإنما دراسة اللغة من خلال نظريات ومناهج علم اللغة؛ فهناك اختلاف حاسم بين مقولات شخصية وانتقائية اعتباطية خاصة، تم طرحها في كثير من الأحيان لدعم أطروحة أدبية مصاغة مسبقا، وبين تحليلات قائمة على نظريات لسانية عامة... والتبرير لاستخدام المناهج اللسانية في التحليلات الأدبية هو كون النظرية النحوية والمعجمية والفونولوجية والصوتية الحالية صالحة بالفعل وذات صلة بهذا الغرض"[30].

ويجدر التنويه على أن العلمية التي أكدنا عليها بخصوص النقد الألسني اللانظامي هي مفهوم نسبي، فإن رفضها هاليدي من حيث أن الدراسة النقدية التقليدية للغة في الأدب غير عقلانية، واعتبرها مجرد تحليلات انتقائية بشكل تعسُّفي ذات طابع عشوائي وشخصي؛ فهذا الحكم القيمي الذي يتبناه إنما يجد تبريره في تصوُّره لتمام الوصف اللساني وشموليته وتفوُّقه التقني، وإن كان هذا التصور نفسه نسبيا هو الآخر؛ فقد أكدت تحولات النقد الألسني النظامي فيما بعد أنه لا يوجد تحليل لغوي كامل وتام... وبناءً على ما سلف ذكره، نؤكد على أننا نقصد بالنقد الألسني النظامي جملة النقود القائمة على مفاهيم مستقاة من نظريات لسانية دقيقة وتحظى بقبول واسع لدى الدارسين.

4. اتجاهات النقد الألسني النظامي/ Systemic linguistic criticism trends:

قام النقد الألسني في بداياته على فكرة البنية (structure)، كمسلمة في نقد الأدب لا يرقى إليها الشك العلمي، ولكن سرعان ما اعتورت هذا التوجه البنيوي عدة إشكالات ترتبط بإكراهات المنهج وطبيعة المادة والغاية من دراستها كما استشرف رونيه ويلك في وقت سابق، وبات من الممكن الحديث عن توجه جديد في النقد الألسني يقوم على فكرة الوظيفية (functional)، لتجاوز الأزمات المنهجية التي عصفت بالنقد البنيوي... وإذا أمعنا النظر في هذا التوجه الوظيفي الجديد نُلفِه يقدِّم طبعة جديدة للمقاربات السياقية -التي قوَّضتها البنيوية في وقت سابق- ولكن بشكل نظامي؛ ونذكر أننا لاحظنا إلحاحا كبيرا على إقحام دال نظامي (Systemic) في البحثين اللغوي والنقدي الوظيفيين لهذه السنوات الأخيرة، حتى أن

بعضهم صار يلحقه بالبنيوية ليقابل النظرية الوظيفية النظامية بما يسميه بالنظرية البنيوية النظامية.

1.4 الاتجاه البنيوي النظامي/ Systemic structural trend:

البنيوية (structuralism) مفهومٌ ثوريٌّ في تاريخ الدراسة اللغوية، ونقلةٌ نوعيةٌ جعلت علم اللغة الحديث كله مدين لأيقونة عصره سوسير، فمن بديهيات المعرفة اللسانية المعاصرة أن أغلب المناهج الحداثية في التحليل اللغوي تفرَّخت عن ألسنية سوسير، التي كان لها بالغ الأثر في انبثاقِ نقدٍ هو أساسا نقد ألسني؛ فذهب رولان بارث (Roland Barthes) إلى تقعيد القصة وتحليل السرد، واهتم تودوروف بالأدبية التي أسسَّ لها رومان جاكبسون(Roman Jacobson)، في حين اشتغل الشكلانيون الروس بالعلاقات الداخلية للنص الأدبي... "إذ يرجع إرث التقليد البنيوي في علم اللغة إلى القبول الواسع لفرضية أن بنية اللغة (Language structure) مستقلة عن استخدام اللغة، وهذه الفرضية مقنَّنة في مجموعة متنوعة من الاختلافات النظرية؛ مثل اللغة والإفراج المشروط/ Language and parol (Saussure, 1916) والكفاءة والآداء/ Competence and preformance (Chomsky, 1965)، وهناك فرضية أخرى هي أن دراسة البنية دعوة أسمى من دراسة الاستخدام، وهي وسيلة واعدة بشكل محتمل للكشف عن الآلية المعرفية الأساسية التي تجعل اللغة البشرية ممكنة"[31]، فقد كانت البنيوية بيانا رسميا يهدر جميع المقاربات السياقية التي تعتدُّ بما هو غير لغوي، وعند هذه النقطة بالذات تبنَّى البنيويون شعار انغلاق النص واكتفائه بكينونته كشرط مركزي لعلمنة الفعل النقدي.

لقد "تم تطوير النقد البنيوي (Structural criticism) على أساس النظريات السيميائية (Semiotic theories)، بما هي طروحات بسطت النظريات اللسانية البنوية (Structural linguistic theories) (كيف يحصل التواصل الهادف في اللغة؟ ومن خلال اللغة وقواعد الجمل)، لتشمل هذه الطروحات جميع وسائل التواصل البشري (بما في ذلك التواصل عبر خطابات ونصوص بأكملها)، وكذا النظريات الدلالية (Semantic theories) (كيف يتم إنتاج المعنى وتبليغه)، ويسمى هذا النقد بنيويا لأنه -وفقا لهذه النظريات- يحصل معنى النص لدى القُرَّاء بقدر ما يتعرفون على الميزات المختلفة في هذا النص والعلاقة

المتبادلة فيما بينها (البنية)، ويمكن فهم المبادئ الأساسية لهذه الطريقة بيسر؛ فنفسها الطريقة التي لا يستطيع بها المرؤ حقا تقدير الصحة الجيدة (معناها والقيمة) طالما لم يختبر المرض؛ وبالتالي لا يعرف الاختلاف والعلاقة بين الصحة والمرض... وهذا هو الحال مع كل الميزات التي يمكن أن تكون مركوزة في النص، من أصغر الميزات؛ من حروف ومقاطعَ وكلمات ودلالاتها (ما تشير إليه) وضمنياتها (القيم المرتبطة بها)، إلى ميزات أكبر؛ من جمل وفقرات وأجزاء، وشخصيات وأفعال ومواقفَ وحبكات فرعية وسير الأحداث، واستعارات وأشكال مغايرة، وكذا إحالات إلى نصوص أخرى ووحدات تصويرية وما شابه؛ فنظرا لأنه يمكن التعرف على أنواع مختلفة من الميزات، يمكن التعرف على بنيات مختلفة وبالتالي معانٍ مختلفة في النص (أبعاد إنتاج المعنى)[32]، وفي المحصلة فإن الدراسة البنيوية تعني استتباع جملة العلاقات المبنية على الاختلاف أو الائتلاف لإدراك الأنساق اللغوية في النصوص؛ إذ تنطلق في نقدها للأدب من مسلمة أن البنية معزولة وأصيلة لا يتطلب إدراكها البحث في العناصر الغريبة عن طبيعتها، وقدرتها على أن تضبط نفسها ذاتها تضمن لها نوعا من الانغلاق.

ويبدو أن هذه الفرضيات الصارمة أرهقت النقد البنيوي، الذي أبان عن ضعفِ كفايته المنهجية في دراسة الأدب لوصفيته المجردة؛ فالتحليل البنيوي لا يزوِّدنا في الأخير إلا بمجرد وصف لأعراضٍ تطرأ على سيرورة لغة النص، دون أن يقدِّم لنا تفسيرا لهذه الأعراض أو يشرح منطلقات وآليات انوجادها، أو أن يعلِّل حضور ظاهرة بنيوية في نص دون آخر... لتبدأ محاولات ترميم المنهج وإنقاذه على يد لوسيان غولدمان (Lucien Goldmann)، الذي زاوج بين البنيوية والرؤية الاجتماعية فيما أسماه بالبنيوية التكوينية كنقد سوسيولوجي؛ يستند أساسا إلى أفكار لوكاتش (György Lukács) حول الرواية، مع تأسيس عدد من المفاهيم الجديدة وبلورتها، ومن ضمنها رؤية العالم (World view) التي تفسِّر البُنى اللغوية في النص على ضوء البنيات الفكرية المتصارعة في الحياة الثقافية للمجتمع.

والحقيقة أن النقد البنيوي الوصفي كان يحمل بذور أزماته المنهجية في عمقِ فرضياته التي انطلق منها؛ فالناقد البنيوي وهو يطمح أن يدرك معنى النص من خلال تحليل بنيته اللغوية ونظامه العلاماتي، لا بدَّ أن يتداعى -من حيث لا يرغب- للمعاني التي يقصدها

المؤلّف، ذلك أن اللغة نفسها لها بعدها الدلالي الذي تفرضه على قارئ النص مهما حاول أن يتجاهله، وهذا يعني انخراط فهمٍ مسبقٍ ضمنيا يخدش موضوعيتها، ويخلع عنها هالة استقلالية النظام اللغوي واكتفائه بذاته، كما " يجب أن نلاحظ أنه على عكس المعنى التاريخي (المؤلف يقصد شيئا واحدا)، يعترف البنيويون بتعدُّد المعاني البنيوية؛ إذ تشير المستويات المختلفة للدراسات البنيوية إلى معانٍ بنيوية مختلفة، وعلاوة على ذلك تهدف كل دراسة بنيوية إلى الكشف عن مجموعة من المعاني، فبُنى النص هي جملة الإمكانات الدلالية لهذا النص"[33]، والسؤال المنهجي الأكثر إلحاحا هو ما الغاية وراء تفعيل النقد البنيوي لنكشف عن معان في النص لم يهدف إليها قائله، وربما لا يصدقها التاريخ ولا والواقع ولا الثقافة...كل هذه الملاحظات والأسئلة جعلت الناقد الألسني يفكر خارج بنية النص، ليطرح سؤال الوظيفية والتسييق والعالم.

2.4 الاتجاه الوظيفي النظامي/ Systemic functional trend:

يستلهم النقد الألسني الوظيفي جهازه المفاهيمي من نظرية اللسانيات الوظيفية النظامية (SFL)، هذه الأخيرة "هي -أوَّلا وقبل كل شيء- شكل من أشكال النشاط اللغوي في السياقات(Contexts)، وواحد من الدوافع إليها بقوة هو الاشتغال على جميع جوانب النظرية وخطاباتها، لذلك من الأهمية بمكان فهم كيف تقوم SFL بتفسير السياق لمعرفة الدور الذي يلعبه ضمن النظرية، ويعود ظهور SFL إلى مقاربة اللغة القائمة على مناهضة فلسفة النظرية الثنائية(Anti-dualist approach to language)، التي طوَّرها فيرث/ J.R. Firth (1890-1960) في بريطانيا خلال الثلاثينات والخمسينيات من القرن المنصرم؛ فمن ناحية، استند موقف فيرث من اللغة إلى الانتقادات الفلسفية للتمييز بين العقل والجسد، التي أصبحت بارزة إثر أعمال لودفيج فيتجنشتاين (Ludwig Wittgenstein) وجيلبرت ريل (Gilbert Ryle) وآخرون، كما استند -من ناحية أخرى- إلى المقترحات الأنثروبولوجية السابقة التي تقضي بمعالجة اللغة أساسا كفعل سياقي للمقاصد الاجتماعية والفردية (cf. Malinowski 1923)، وأدَّى ذلك إلى وضعِ فيرث لسياقات ملموسة لاستخدام اللغة بمركز مقاربته، كأهداف أساسية للبحث في علم اللغة، ولكن بدون وضع افتراضات مسبقة حول ما قد يحدث في المجتمع أو في العقول كما يبدو أنها تشارك في مثل هذه السياقات... فقد

أخذ فيرث المواقف الفلسفية في عصره على محمل الجد، ورأى أيَّ صياغات تمَّ إجراؤها على أنها كيانات لسانية في حدِّ ذاتها، إنما هي لسانيات كانت –بالمعنى الفيرثي- مجرد لغة ولَّت على لغة"[34]، وهذا الكلام معناه أن فيرث ناهض الدراسات اللغوية التي قامت على نهج فلسفة رونيه ديكارت (R. Descartes) في نظريته الثنائية(Dualism theory)، القائمة على فكرة تقسيم العالم إلى نوعين من الكينونات هما الجواهر الذهنية (Mental substances) والجواهر المادية (Physical substances)؛ فانتفض على النظرة الثنائية التي انبنى عليها الدرس اللساني البنيوي (ثنائيات سوسير الشهيرة، ثنائيتي البنية العميقة والبنية السطحية وكذا القدرة والإنجاز عند نعوم تشومسكي...)، واعتبرها مجرد توصيفات للغة على نفسها، ليولي اهتماماته الحقيقية لدراسة اللغة من زاوية وظيفية عبر استخداماتها السياقية .

إن الوظيفية (Functional) دالٌّ تمت استعارته من حقول معرفية غير لغوية، على رأسها العلوم البيولوجية... ودراسة لغة النصوص والخطابات من منظور وظيفي يعني التعامل مع اللغة ككائن عضوي يفكر وينطق ويتنفس؛ إذ "يستخدم مصطلح الوظيفة في معنيين متميزين، رغم أنهما يرتبطان بنقطتين مختلفتين للغاية في وصف اللغة؛ أولا يتمُّ استخدامه في معنى الوظيفة اللغوية (أو الإعرابية)، للإشارة إلى عناصر التراكيب اللغوية؛ مثل الفاعل والهدف أو الموضوع والغاية أو التيمة والقافية، هذه الوظائف هي الأدوار المشغولة حسب فئات الكلمات والعبارات، وما شابه ذلك في بنية الوحدات الأعلى . ثانيا، يتمُّ استخدامه للإشارة إلى وظائف اللغة ككل، كما في العمل الشهير لكارل بوهلر (Karl Buhler) سنة 1934م؛ الذي يقترح فيه تقسيما ثلاثيا لوظيفة اللغة إلى التمثيلية والمخروطية والتعبيرية(The representational/ The conative/ The expressive)... فالنظرية الوظيفية للغة نعني بها جملة المحاولات التي تشرح البنية النحوية والظواهر اللسانية، مع الإحالة إلى فكرة أن اللغة تلعب دورا مُعينا في حياتنا"[35]، وبعبارة أخرى؛ فالنظرية الوظيفية للغة هي نظرية حول المعاني، وليست حول الكلمات أو الأبنية، وكل الوظائف –التي أقرَّها هاليدي- الفكرية والشخصية والنصية(The deational/ The interpersonal/ The textual) تتجسد في وقت واحد إثر إجراءات التصميم الخاصة بالمتكلم[36].

وفيما يتعلق بمصطلح نظامي (Systemic)، فإنه "ينطبق بشكل خاص على تلك المدرسة لعلم اللغة الوظيفي التي قام عليها مشروع هاليدي، ووفقا لهذا الأخير فإن عمل هذه المدرسة متناغم مع أعمال آخرين وامتداد لها، بما في ذلك مدرسة براغ (The Prague school) والعمل في منظور الجملة الوظيفية(Functional sentence)، أو تطوير أفعال الكلام (Speech acts) والتداولية (Pragmatics) في أعمال أوستين (Austin) وجرايس (Grice) وسيرل (Searle)؛ فاللسانيات الوظيفية النظامية تتمحور حول فكرة الوظيفة اللغوية، إذ تضع SFL وظيفة اللغة ضمن أولوياتها المركزية (ما الذي تفعله اللغة؟ وكيف تفعل ذلك؟)، على خلاف المناهج الأكثر بنيوية التي تعتدُّ بمركزية عناصر اللغة وتركيباتها... فهي تأخذ النص بدلا من الجملة كموضوع لها، وتحدد نطاقها بالإشارة إلى الاستخدام بدلا من القواعد؛ إذ ينصب التركيز على تحليل المنتجات الحقيقية للتفاعل الاجتماعي (النصوص)، مع الأخذ بعين الاعتبار السياق الثقافي والاجتماعي الذي يتم التفاوض فيه (Eggings, 1994: I)؛ وبالتالي، فإن المقاربة الوظيفية النظامية للغة تعني أن استخدام اللغة هو فعل وظيفي ودلالي وسياقي وسيميائي... و يشير إيغانغز إلى أنه يتم الاعتراف بها بشكل متزايد لكونها توفّر إطارا وصفيا وتفسيريا مفيدا جدا لعرض اللغة كمورد استراتيجي"[37].

وفي هذا الصدد يقول روجر فاولر (Roger Fowler) في كتابه الماتع (Linguistic criticism): "إن اللسانيات الوظيفية تحترم كلية النصوص وخصوصيتها، بدلا من مجرد استيعاب محتوياتها داخل مخطَّط مبجَّل ومفرط في تجريديته، فلكلِّ نصٍّ يقدِّم هذا النوع وصفا للأنساق اللغوية، ولكن البناء الذي يكشف عنه التحليل لا يُترك كما هو؛ فاللساني الوظيفي يسعى دائما إلى فهم سبب وجود هذه الأنساق اللغوية بالذات، وتعليل ذلك من زاوية الاحتياجات الاجتماعية والتواصلية التي جاء النص ليخدمها"[38]... والحقيقة أنه لا توجد حدود منهجية فاصلة بين التوجهين البنيوي والوظيفي، فالوصف والتفسير لا بد أن يتعاضدا من أجل الإمساك بالمعنى ومحاصرته، وأساسا ارتباط النص أو الخطاب بالسياقات الاجتماعية والثقافية هو ما يحفِّز ويحدِّد تمظهراته البنيوية، وهذه الأخيرة -في الوقت نفسه- تصوغ لنا غاية التواصل وديناميكيات التفاعل وشروطه الموضوعية.

5.خاتمة:

وتحريرا للدلالة على ما سبق، فإن النقد الألسني (النظامي) مصطلح إبستيمي إجرائي يرتبط بالخطاب النقدي الحديث والمعاصر، يحيل في كينونته إلى هيمنة المركزية اللسانية في دراسة النصوص وتحليل الخطابات، مع الأخذ بعين الاعتبار تداعيات لسانيات سوسير في التأريخ والتأسيس المباشرين لهذه المركزية اللسانية في العملية النقدية، وانبثاق مناهج التحليل اللغوي بدءا من النصف الثاني من القرن العشرين، وتبلورِها على الصورة التي نعرفها اليوم... هذا التحديد المنهجي الذي نطرحه لضبط المصطلح حتى نفرِّق بين النقد الألسني النظامي الذي يشتغل في حدود توظيف المعطى اللساني الحديث بمناهجه ومصطلحاته وتوجهاته البنيوية والوظيفية من جهة، وجملة التآليف النقدية التي تُعنى باللغة في الأدب بشكل عشوائي وغير نظامي من جهة أخرى؛ فالنقد الألسني في المحصلة هو جملة الممارسات النقدية التي تستمدُّ مُدخلاتها وأدواتها الإجرائية في دراسة العمل الأدبي وتحليله من مُخرجات وإمكانات المنجز اللساني النظامي وفتوحاته في علم اللغة.

6. الهوامش:

---

[1] - H.D. Rankin, Sophists, Socratics and Cynics, Routledge, New York, 2014, p 46.

[2] - Ibid, p 50.

[3] - Ibid, p 50.

[4]- George I. Stack and Mary Dimaria, Emerson and postmodernism, within a book: Emerson for the twenty- firset century, Barry Tharaud, USA , 2010, p 408.

[5]- Walter T. Schmid, On maly courage: A study of Plato΄s Laches, Southern Illinois University Press, USA, 1992, p 24.

[6]- Ibid, p 24.

[7] - See: Aristophanes, Frogs, trans: Lan Johnson, 01 st, Faenum Publishing, Oxford, 2015, p 133.

[8] - Aristotle΄s Poetics, Trans: George Whalley, Mcgill-Queen΄s University Press, Canada, 1997, p 55.

[9]- Ibid, p 57.

[10]-Ibid, p 56.

[11] - See: S.H. Butcher, The poetics of Aristotle, 03 rd, The Macmillan Company, New York, 1902, p 71.

[12] - See: Ibid, p 71-77.

[13] - See: Ibid, p 77-81.

[14] - See: Ibid, p 81-87.

[15] - See: Stephen Halliwell, Aristotle's Poetics, 02 nd, The University of Chicago Press, Great Britain, 1998, p 17.

[16] - Stephen Everson, Companions to ancient thought: 03/ Language, 01 st, University press of Cambridge , Great Britain, 1994, p 37.

[17] - For more details on Aristotle's discussion of names and their meaning or signification, see: David Charles, Aristotle on meaning and essence, 01 st, Oxford university press, New York, 2002, p 78-175.

[18] - Albrech Classen, Handbouk of medieval studies: Terms/ Methods/ Trends, v: 01, Walter de Gruyter Gmbh and Co.KG, Berlin/ New York, 2010, p 21.

[19] - Abdelrashid Mahmoudi, Taha Husain's Education from the Azhar to the Sorbonne, Routledge, New York, 2013, p 200.

[20] - Stefan Sperl and Christopher Shackle, Qasida poetry in Islamic Asia and Africa/ Eulogy's Bounty, Meaning's Abundance an anthology, v: 02, EJ. Brill and Leiden, New York and Kolen, 1996, p 07.

[21] - Irfan Shahîd, Byzantium and the Arabs in the fourth century, 02 nd, Dumbarton Oaks research library and collection, USA, 2006, p 437.

[22] - Ibid, p 445.

[23] - Ibid, p 447.

[24] - Esad Duracović, The poetics of ancient and classical Arabic literature, Tras: Amila Karahasanović, 01 st, routledge Taylorδ Francis group, London and New York, 2015, p 197.

[25] - دريد بن الصمة، ديوان دريد بن الصمة، تح: د. عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، 1980، ص 62 .

[26] - Richard John Kosciejew, Analytic linguistic trends, AuthorHouse, Bloomington, 2014, p 02.

[27] - Ibid, p 02/03.

[28] - Ferdinand De Saussure, Cours de linguistique general (1916), Payot, Paris, 1971, p 374.

[29] - René Wellek and Austin Warren, Theory of literature, Harcourt/ Brace and company, New York, 1948, p 06/07.

[30]- Jonathan J. Webster, Volume 2 in the collected works of M.A.k. Halliday: Linguistic studies of text and discourse/ M.A.k. Halliday, 1st, Continuum, London and New York, 2002, p 05/06.

[31]- Joan Bybee and Paul Hopper, Frequency and the emergence of linguistic structure, John Benjamins publishing company, Amsterdam/ Philadelphia, 2001, p 01.

[32]- Article by Daniel Patte: Thev origin of structural criticism/ A method developed out of semiotic and semantic theories, within a book: Steven L. Mckenzie and Stephen R. Haynes, To each its own meaning, Westminster John Knox/ Louisville, London and Leiden, 1999, p 183.

[33]- Danial patte, What is structural exegesis? Wipf and Stock, Eugence and Oregon, 2015, p 15.

[34]- Article by John.A. Bateman: The place of systemic functional linguistics as a linguistic theory in the tewenty-first century. within a book: Tom Bartlet and Gerard O'Grady, The Routledge handbook of systemic functional linguistics, 1st, Routledge/ Taylor and Francis Group, London and New York, 2017, p 14.

[35]- Jonathan J. webster, Volume 2 in the collected works of M.A.K Halliday, Linguistic studies of text and discourse/ M.A.K Halliday, 1st, Continuum, London and New York, 2002, p 89.

[36]- See: Ibid, p 96.

[37]- Article by Eva Samaniego Fernández and Mª. Sandra Pēña Cervel: An overview of systemic (functional) linguistics. within a book: Ricardo Miral Uśon, Mª. Ángeles Escobar Álvarez, Mª. Sandra Pēña Cervel and Eva Samaniego Fernández, Current trends in linguistic theory, Universidad nacional de educatiÓn a distancia, Madrid, 2011, p 182.

[38]- روجرفاولر، النقد اللساني، تر: عفاف البطانية، ط01، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2012، ص 32.